الحياة الطيّبة
السنة ١٨
العدد ٢٩
صيف-خريف ٢٠١٤م
ملف العدد

التفسير الموضوعيّ عند السيّد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره - دراسة مقارنة مع الطرح الهرمنيوطيقي -

د. علي أصغر يساقي[1]

ملخّص البحث:

يُعدّ السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره من مفكّري العالم الإسلاميّ البارزين والمبدعين في هذا العصر، وله أعمال قيّمة في مجالات مختلفة. وقد قدّم أفكاراً مبتكرة ومتناسبة مع النهضة الثقافيّة والفكريّة المعاصرة والحديثة.

ولا شكّ في أنّ تفكيره في مجال التفسير الموضوعيّ هو - أيضاً - على هذا النحو من الإبداع والحيويّة، حيث نجده خلافاً لغيره من مفسّري القرآن والباحثين فيه، يؤكّد على وجود الفرضيّات، والاستفادة من التراث العلمي والخبرات البشريّة.

وإنّ دراسة أفكاره في مجال التفسير ومقارنتها مع الطرح الهرمنيوطيقي في مجال منهج فهم النصّ تبيّن التماثل والتّشابه بين هذين المجالين؛ حيث يؤكّد الطرح الهرمنيوطيقي على دور المعلومات المُسبَقة والفرضيّات في فهم أفضل وإدراك أقرب للنصّ.

(١) دكتوراه في علوم القرآن والحديث، جامعة آزاد الإسلاميّة، وحدة طهران للعلوم والبحوث.

وعلى الرّغم من أنّ الشهيد الصدرقدس سره لم يذكر بوضوح عبارة «**علم التفسير**» أو المصطلحات الأخرى من قبيل: «**الدور الهرمنيوطيقي**» و «**اندماج الآفاق**»، ولكنّ إعرابه عن بعض المصطلحات؛ ك «**الاستنطاق**» و«**المفاهمة**» يشبه إلى حدّ كبير هذه المفاهيم نفسها المطروحة في «**علم التفسير**» و«**الهرمنيوطيقا**».

مقدّمة:

إنّ تطوّر الحياة الاجتماعيّة للإنسان قائم على أساس اتّساع معارفه ومعلوماته، بحيث تختلف حياته القديمة عن حياته الجديدة، تبعاً لذلك.

وعلى الرغم من أنّ مستوى العلم البشريّ أخذ يزداد يوماً بعد يوم، ما ساهم في توسيع المجتمعات البشريّة، لكنّه طرح بعض الأزمات والتعقيدات في مجال العلم والحياة الاجتماعيّة، مضافاً إلى طرح بعض الأسئلة في مجال معتقد الإنسان وحياته.

وقد نحا بعض علماء الإسلام منحىً تجديديّا في منهج العودة الى القرآن وتفسيره، تاركين المنهج التقليدي؛ بذريعة عدم كفايته في الإجابة عن كلّ ما يدور في عقول المسلمين من شبهات وتساؤلات حديثة ومعاصرة.

وبناءً على ما سبق، فقد عدّ بعض المفسّرين المتأخّرين التفسير الموضوعيّ للقرآن الطريق الوحيد لتحديد الرؤية القرآنيّة إلى مختلف مواضيع الحياة التي يحتاج الإنسان فيها إلى جوابٍ شافٍ.

غير أنّه ليس لدى جميع المفسّرين نظرة واحدة تجاه التفسير القرآنيّ، وكثيراً ما يهتمّون بما ورد في النصّ القرآنيّ من المعاني، فتعتمد مصطلحات التفسير الموضوعي على ما ينصّ عليه القرآن على حدّ تعبيرهم[1]، بينما نرى الشهيد الصدرقدس سره يصرّ على شكل خاصّ

(١) انظر: فتح الله، سعيد عبد الستار: المدخل الي التفسير الموضوعي، لاط، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١١هـ.ق، ص١٧-٢٠.

من أشكال التفسير الموضوعيّ.

فالشهيد السيد محمّد باقر الصدر قدس سره هو أحد المفكّرين الحكماء والأذكياء في العالم الإسلاميّ، وله مؤلّفات قيّمة في مختلف المجالات، مثل: الفلسفة، والمنطق، والكلام، ومبادئ الاقتصاد، والتفسير. وفي جميع هذه المجالات لديه أفكار مبتكرة وخلاّقة ومتناسبة مع مقتضيات العصر، حيث كان يهتمّ بالمعارف البشريّة ومعلومات عصره، ويطّلع على الأفكار والخبرات والمعارف المتعلّقة بكلّ موضوع، ثمّ يقوم بشرحه وتوضيحه، وطرح نظريّات جديدة وبنّاءة. وقد عمل بالمنهج نفسه في مجال التفسير الموضوعيّ.

ولكنّ فكر الشهيد الصدر قدس سره في مجال التفسير الموضوعيّ لم يحظ ببحث وتقويم دقيق في معظم خصائص طروحاته التفسيريّة. وإحدى هذه الخصائص: خاصّيّة التشابه بين فكره وبين الهرمنيوطيقا. ولهذا السّبب فإنّ تحليل وجهة نظره في مجال التفسير الموضوعيّ، وشرح التشابه الموجود بينه وبين الطرح الهرمنيوطيقي يبدو ضروريّاً.

ومن هنا، تتوخّى هذه المقالة دراسة وجهة نظر هذا العالم الحكيم، وشرح أبعاد فكره المخفيّة في هذا المجال، الذي يتوافق فيه كثيراً مع الطرح الهرمنيوطيقي، ثمّ القيام بمقارنة فكره مع مباحث التفسير الموضوعيّ من خلال دراسة أوجه التشابه وتحليلها، وبيان المحادثات والتماثلات بين وجهة نظره والطرح الهرمنيوطيقي، على أمل أن يتمّ إيضاح مقدار من الآراء والأفكار البديعة لهذه الشخصيّة النبيلة في حقل التفسير الموضوعيّ، ولفت الاهتمام إلى فكره التفسيريّ في المجتمعات العلميّة.

ويرى الشهيد الصدر قدس سره أنّ المفسّر الموضوعيّ لا بدّ له من الخوض في ميادين الصراعات الفكريّة، والتجارب البشريّة؛ حتى تهبّ عليه مختلف الآراء من كلّ حدب وصوب، فيقف أمام القرآن وهو يحمل كثيراً

من العلوم الإنسانيّة، ويعرض عليه أسئلته، ويستلهم من القرآن إجاباتها.

وبعبارة أخرى: إنّ التفسير الموضوعي من منظار الشهيد الصدرقدس سره يضمّ كلّ ما يُطرَح في القضايا الدينيّة، والتجارب الدنيويّة من التساؤلات. وفي اعتقاده أنّ النصّ يجيب عن أسئلة الإنسان.

ولقد شهد التفسير الموضوعيّ تطوراً لافتاً خلال القرنين الأخيرين، حيث ظهرت كتب عدّة في التفسير الموضوعيّ من جهة، ومناهجه من جهة أخرى، ولكن لم يجر تأليف دارسة خاصّة جامعة عن آراء الشهيد الصدرقدس سره وأفكاره الإبداعيّة في مجال التفسير الموضوعي.

وبالتّالي من الضّروري دراسة آراء الشهيد الصدرقدس سره فيما يتعلّق بالتفسير الموضوعي، وإلقاء الضوء على أوجه التشابه بينه وبين قضايا الهرمنيوطيقا.

أولاً: أركان التفسير الموضوعي من وجهة نظر الشهيد الصدرقدس سره:

يركّز الشهيد الصدرقدس سره في إيضاح أسسه النظريّة في التفسير الموضوعيّ على ركنين أساسيّين، هما:

١. **الأوّل: الركن الداخليّ**: وهو القرآن الكريم الذي يرجع إليه المفسّر في التفسير الموضوعيّ، ومحاولة استخراج الرؤية القرآنيّة إلى الموضوع المبحوث.

٢. **الثاني: الركن الخارجي**: وهو معلومات المفسّر السابقة، والمعتقدات التي وفّرتها له الخبرات البشريّة.

وما لا شكّ فيه أنّ القرآن هو الركن الأساس للتفسير الموضوعيّ. وقد أكّد جميع المفسّرين المتّبعين منهج التفسير الموضوعيّ على هذا دون أيّ اختلاف بينهم.

ولكن ما يميّز وجهة نظر الشهيد الصدرقدس سره عن هؤلاء هو اهتمامه الخاصّ بـ «**الركن الخارجيّ**». وهو ما أوجد اختلافاً بينه وبين باقي

المفسّرين، وتشابهاً ما بينه وبين ما هو مطروح في «**علم التفسير**» و«**الهرمنيوطيقا**».

ولذلك يجب أن يتمّ فهم غرض الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ من «**الرّكن الخارجيّ**» بشكل صحيح ودقيق؛ لكي يتمّ على ضوء ذلك معرفة منهجه الخاصّ في التفسير الموضوعيّ من جهة، ومقارنته بما هو مطروح في «**علم التفسير**» و«**الهرمنيوطيقا**».

وكما ذُكِرَ مسبقاً، فإنّ مقصوده من «الرّكن الخارجيّ» هو خصوص المعلومات المُسبقة التي توافرت للمفسّر بفعل المعارف والخبرات البشرية. ولكنّ هذا الكلام من الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لا يعني أنّ المفسّر يفرض آراءه المُسبَقة على القرآن، بل هذا الركن الخارجيّ هو بمثابة مقدّمة تمهيديّة للركن الداخليّ، فالمفسّر في التفسير الموضوعيّ يستعين بعلوم العصر والخبرات البشريّة لفهم غرض الله سبحانه وتعالى. فـ«كلُّ من كان حظّه في العلوم أوفر كان نصيبُه من علم القرآنِ أكثر»[١].

وليست حاجة التفسير إلى العلوم مسبَّبة عن نقص في أسلوب بيان القرآن، بل هي قائمة على أساس توفير أرضيّة الفكر والعقل المناسبين للمفسّر الذي يتوخّى الكشف عن مفاهيم القرآن الحقيقيّة، وبيان الرؤية القرآنيّة.

ولا شكّ بأنّ إدراك مفاهيم القرآن المتعالية والميّزات اللفظيّة والمعنويّة للآيات يتطلّب قدرة عقليّة وفكريّة مناسبة. وهذا الأمر يتيسّر فقط في ظلّ توافر المفسّر على قدرات علميّة[٢]؛ لأنّ قدرة المفسّر على فهم الأمور هي حصيلة معرفته.

(١) الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق مرعشي، ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٥هـ.ق، ج٢، ص٤٨؛ الراغب الأصفهاني، حسين: جامع التفاسير، تحقيق أحمد حسين فرحان، الكويت، دار الدعوة، ١٤٠٥هـ.ق، ص٧٦.

(٢) بابايي، علي اكبر وديكران: روش شناسي تفسير قرآن، طهران، منشورات سمت، ١٣٧٩هـ.ش، ص٣١٨.

ومن هنا، نرى الشهيد الصدر قدس سره كثيراً ما يركّز على «الرّكن الخارجيّ»، وقد جعل الاهتمام بهذا الرّكن أساساً للتفسير الموضوعيّ[١]. وهو يعتقد أنّ مواجهة المفسّر الموضوعيّ مع القرآن يجب أن تكون بحكمة؛ لأنّ المفسّر لا يستطيع أن ينادي صوت حقّ القرآن ويكشف أسراره الداخليّة؛ إلّا بمساعدة هذا النوع من المواجهة، فعلوم المفسّر السابقة هي الأُذُن للاستماع إلى رسالة القرآن الكريم، وبقدر ما لديه من خبرات أكثر سيكون تفسيره ذا فائدة ومثمراً أكثر؛ فـ «مصادر هذا التفسير هي الخبرات البشريّة، وكلّما زادت هذه الخبرات وأضيف إليها معلومات خارجيّة؛ سيتعزّز هذا التفسير أكثر»[٢].

ويعتقد الشهيد الصدر قدس سره أنّ المفسّر الموضوعيّ يجب أن يُراعي هذه القاعدة، وقبل البدء بأحد المواضيع الحياتيّة أو المواضيع الأيديولوجيّة أو العالميّة، يجب أن يكون لديه تركيز كافٍ على الموضوع، ويدّخر بعض القضايا؛ من خبرات، وأفكار الآخرين، كما يجب أن يكون لديه المعرفة بالمشاكل والحلول التي طُرِحَت من قِبل الفكر الإنسانيّ.

وفي هذه الحالة لن يكون المفسّر مستمعاً جامداً ومقرّراً من غير جهد، بل عارضاً المسألة مقابل القرآن محاولاً استنطاقه واستخراج رؤيته في المواضيع المختلفة، فيبدأ كلامه بنصّ من القرآن، ويسعى على ضوء مجموعة من الخبرات والمعلومات التي حصل عليها من خلال الفحص والدراسة ليفهم رؤية القرآن عن ذلك الموضوع، وبمقارنة نصّ القرآن مع تعاليمه من الأفكار، يتمّ الاطّلاع على رأي القرآن[٣].

ويرى الشهيد الصدر قدس سره أنّ نتائج التفسير الموضوعي هي -دائماً- على علاقة وثيقة مع مجموعة خبرات الإنسان؛ لأنّ نتائج هذا النوع من التفسير تمثّل توجيه القرآن، وبالتالي نظريّة الإسلام حول موضوع

(١) الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ط١، إيران، موسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، ١٤٢٤هـ.ق، ص٢٧.
(٢) م.ن، ص٢٨.
(٣) م.ن، ص١٦.

من مواضيع الحياة. وهو يعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ سرّ خلود كلام الله ومفاهيمه اللامتناهية وحيويّتها يكمن في الاهتمام بهذه المسألة؛ لأنّه إذا كان القرآن يفسَّر وفقاً للمواضيع المستندة إلى الحياة البشريّة والخبرات الإنسانيّة؛ فسيكون له دائماً قدرة الكفاءة والغليان المستمرّ والعطاء المتواصل. وهذا سرّ فهم كلام الله سبحانه؛ كما يقول تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (سورة لقمان: الآية ٢٧)؛ حيث يقوم استخدام التفسير الموضوعيّ على الخبرات والأفكار البشريّة. ومن خلال هذا الاتّجاه التفسيريّ يتّصل القرآن من خلال التفسير الموضوعي بالعالم الخارجي، ويمتزج مع الحياة البشريّة، وبالتالي ستظهر ديمومته، وستستمرّ، وتبقى قدرته على الإبداع والابتكار[١].

وينظر الشهيد الصدرقدس سره إلى التفسير الموضوعيّ على أنّه يضع مواضيع القرآن في سياق بحث واحد مع الخبرات البشريّة؛ لكي يوفّر هذا الاندماج أرضيّة الفحص والدراسة المطلوبة.

وبعبارة أخرى: يُظهِر التفسير الموضوعيّ ذلك المفهوم القرآنيّ الذي يبيّن رأي الإسلام عن الخبرة البشريّة عن المعروض على القرآن، ويخلق الوحدة بين القرآن الكريم والخبرة البشريّة. ووفقاً لوجهة نظره، فالخبرة البشريّة تجلب معلومات قيّمة للتفسير الموضوعي؛ لكي يكون المفسّر قادراً على أخذ أجوبته من القرآن[٢].

بعد ما تمّ توضيح أفكار الشهيد الصدرقدس سره تقريباً عن التفسير الموضوعيّ، سنقوم بمقارنة وجهة نظره مع الطرح الهرمنيوطيقيّ.

ثانياً: دور الافتراضات ومعلومات المفسّر السابقة:

من أهمّ القضايا في مجال الهرمنيوطيقا خاصّةً وفي علم التفسير الفلسفيّ؛ هو دور معلومات المفسّر السابقة في تفسير النصّ. حيث كان

(١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، م.س، ص٢٠.
(٢) م.ن، ص٢٣، ٢٧.

غادامير يعتقد أنّ الافتراضات تؤدّي دوراً إيجابيّاً في عمليّة الفهم، وخبرة الإنسان الهرمنيوطيقيّة، ولا يمكن للإنسان من دون معلوماته السابقة أن يحققّ فهم أو تأويل شيء(١).

ويؤكّد غادامير على أنّ المنطق الذي يحكم العلوم الإنسانيّة هو منطق السؤال والجواب. فالسّؤال يهدي الفهم. ومن دون السؤال لا يتمّ الفهم الصحيح. ويجب أن يُؤخَذ بعين الاعتبار أنّ غادامير يرى أنّ هدف هذا الحوار والسؤال والجواب؛ هو «**جعل العمل يتكلّم**»، بمعني أنّ جهود المفسّر ليست هي فرض معلوماته السابقة على الموضوع، بل معلومات المفسّر السابقة هي نقطة البداية العمليّة التي سيكون منتجها النهائي جعل النصّ يتكلّم.

وفي الهرمنيوطيقيا الفلسفيّة لا يستطيع الإنسان من دون معلوماته المسبقة أن يدخل إلى عمليّة الفهم. ولكن، مع استمرار هذه العمليّة، لم يكن محكوماً ومحبوساً جرّاء حكمه المسبَق. حيث يتعامل الإنسان مع النصّ والمواضيع التي يمكن لها أن تتحدّى حكمه المسبَق. وهذا الأمر سيخرجه من الحصار الملزِم لمعلوماته السابقة، ويدخله في عمليّة وعلاقة مزدوجة معها. ويعتقد غادامير أنّ المفسّر في عمليّة الفهم لا يسيطر سيطرة احتلاليّة على موضوع المعرفة (النصّ)، بل موضوع المعرفة هو الذي يبيّن نفسه له في مكان الفهم(٢).

ونتيجةً لذلك، ففي الهرمنيوطيقا الفلسفيّة ليس للفهم معنى من دون الافتراضات والمعلومات السابقة. وكلّ فهم يحتوي على المعلومات السابقة. وأساساً لا يمكن لأيّ إنسان أن يبدأ بعمليّة الفهم من الفراغ. كما أنّ الإنسان ذاته لم يكن متروكاً في الفراغ، فإنّ فهمه أيضاً لم يكن متروكاً في الفراغ(٣).

(١) كلبايكاني، هرمنيوتيك ومنطق فهم دين، م.س، ص٢٥١.
(٢) مسعودي، جهانكير: هرمنيوتيك ونواندیشي ديني، ط١، قم المقدّسة، معهد الفكر والثقافة الإسلاميّة، ١٣٨٦هـ.ش، ص٧٨.
(٣) م.ن، ص١٤٨.

ويعتقد غادامير أنّ تأثير الافتراضات على الفهم كثيرة جدّاً في عمليّة الحوار مع النصّ؛ لأنّ الافتراضات هي صورة مدمجة وكثيفة من «**كتلة من الخبرات**»، وتعاليم الأجيال السابقة للمفسّر. فالمعلومات السابقة هي الحقيقة التاريخيّة لوجود البشر، ومن خلال هذه المعلومات يمكن للإنسان أن يكون لديه فهم من التاريخ والظواهر.

ومن الواضح، أنّ ما ذكرناه مسبقاً يتوافق تماماً مع وجهة نظر الشهيد الصدرقدس سره عن التفسير الموضوعيّ.

ويرى الشهيد الصدرقدس سره - خلافاً لوجهة نظر كثيرٍ من المفسّرين والباحثين في القرآن الذين يعتقدون أنّه على المفسّر إفراغ عقله من أنواع الافتراضات والمعارف؛ لكي لا يُبتَلى بالتفسير بالرأيّ - أنّه لفهمِ كلام الله بشكل أفضل، لا بدّ للمفسّر من أن يستخدم الافتراضات التي أُتيِحَت له من خلال الخبرات البشريّة، ويستفيد منها.

وقد استنتج بوضوح أنّ إفراغ العقل من الافتراضات والمعلومات ليس ممكناً، ولا مرغوباً فيه؛ لأنّ تفسير القرآن هو من مقولة الفهم، ولا يوجد فهم خال من غبار البشريّة. فوجود البشريّة في التفسير، يعني أنّ أداة فهمها هي عقل الإنسان. وعندما يقوم بتفسير القرآن في الحقيقة، سيكون فهمه من النصّ موافقاً لعلمه.

ولذلك، فإنّ معلومات المفسّر السابقة تكون ممهِّدة وداعمة لفهم الكتاب. ومن جهة أخرى هذه المعارف الإنسانيّة هي التي تخلق الأسئلة في عقل المفسّر، وتقول له ماذا يسأل القرآن؟ ومن أيّ منظار يرى المواضيع؟ لأنّ العقل الفارغ غير قادر على الاستفهام. وفي الواقع يتحقّق الاستفهام بتلاقي المعارف العقليّة للمفسّر[١].

(١) جليلي، هدايت: تفسير موضوعي، ط١، قم المقدّسة، منشورات بوستان كتاب، ١٣٨٧هـ.ش، ص١٤٥. وللمزيد من المعلومات، انظر: سروش، عبد الكريم: قبض وبسط تئوريك شريعت، ط٦، طهران، منشورات صراط، ١٣٧٧هـ.ش، ص٤٤٢ وبعدها: مجتهد شبستري، محمد: هرمنيوتيك كتاب وسنت، ط٢، طهران، منشورات طرح نو، ١٣٧٥هـ.ش، ص١٥٣.

ويؤمن الشهيد الصدرقدس سره - مثل أصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفيّة - بتأثير شخصيّة المفسّر في تفسير القرآن، ويقبل بأنّ الافتراضات والمعتقدات وخلفيّات المفسّر العقليّة كلّها تؤثّر على فهمه للنصّ. ومعنى النصّ ليس حقيقة ثابتة وغير قابلة للتغيير وقائمة باللّفظ، بل تتوضّح دائماً في ضوء الإضاءات العقليّة للمفسّر[١].

وفي الواقع، استنتج الشهيد الصدرقدس سره أنّ في عالم اليوم مزيداً من السّرعة، والتطوّر، وتوسّع العلم، والتأثير الكامل لهذا التقدّم في العلوم على أسلوب الحياة البشريّة الجماعيّة. وإذا أراد المفسّر الموضوعيّ أن يكون لديه ما يقول في البداية، فيجب عليه أن يزوّد نفسه بالمعلومات والعلوم البشريّة في عصره، ليذهب إلى القرآن ومعه المعلومات السابقة والنظريّات المختلفة التي حصل عليها من دراسة المذاهب المختلفة. وبهذه الطريقة في مواجهة القرآن سيجعله يتكلّم ويبدأ بالحوار معه[٢].

فالشهيد الصدرقدس سره يعلم أنّ التوصّل إلى فهم أفضل من الكلام يعتمد على فهم الطبقات والبطون المختلفة. وهذه الطبقات متناظرة مع طبقات الحقيقة. وأيّ مفسّر يعلم عن الحقيقة أكثر؛ سيكون نصيبه من الخبرات والمعارف البشريّة أكثر. وبالطبع سيكون نصيبه من فهم القرآن أكثر وأكثر. ولهذا السبب نراه يؤكّد دائماً أنّ المفسّر الموضوعيّ يجب أن يبدأ تفسيره من عالم الواقع[٣].

والملاحظة الأخرى التي أكّد عليها الشهيد الصدرقدس سره بالاستلهام من كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي الاستنطاق من القرآن. وهذا - أيضاً - يشابه الطرح الهرمنيوطيقيّ كثيراً. فالهرمنيوطيقا تؤكّد على أنّ النصّ

(١) ايازي، محمد علي: تأثير شخصيت مفسر در تفسير قرآن، صحيفة مبين، عدد١٩، صيف ١٣٧٨هـ.ش، ص١٦.

(٢) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص١٩-٢٢.

(٣) م.ن، ص١٩.

لا يتكلّم أبداً، بل قارئ النصّ هو الذي يجعله يتكلّم. ومن دون التساؤل لا يتمّ الحصول على المعنى. كما كان يعتقد غادامير أنّ محصّلة السؤال والجواب والحوار ونتائجها هي «**تكلّم النصّ**»(١).

وهذا بالضبط الموضوع نفسه الذي يذكره الشهيد الصدر قدس سره في التفسير الموضوعي تحت عنوان «الاستنطاق»، وبالاستناد إلى كلام الإمام علي عليه السلام الذي يقول: «ذلك القرآن، فاستنطقوه، ولَن ينطقَ»(٢) يكتب ما يلي: «عندما يدرس المفسّر الآي القرآنيّة من خلال المعلومات السابقة، ففي هذه الحالة لم يكن - فقط - مجرّد سامع جامد، ومقرّر من غير مجهود، بل عارضاً المسألة أمام القرآن بوصفه موضوعاً مطروحاً يتعامل مع الأفكار والدراسات البشريّة الواسعة، يبدأ حواره مع نصّ القرآن. فالمفسّر يسأل، والقرآن يجيب. والمفسّر في ضوء الخبرات المكتسبة من دراسته واستكشافه البشر يسعى للحصول على رأي القرآن عن ذلك الموضوع، ومن خلال مقارنة نصّ القرآن مع معلوماته من الأفكار والعلم، يفهم رأي القرآن»(٣).

وعليه، فإنّ التفسير الموضوعيّ عند الشهيد الصدر قدس سره يشابه الطرح الهرمنيوطيقيّ، لجهة أنّ هيكل الفهم الجدليّ والحواريّ يستند إلى نظام السؤال والجواب.

ونتيجة هذه العمليّة عدم انتهاء الأسئلة والأجوبة والفهم، ورسم مسار لا نهاية له. ولأنّ المفسّرين يراجعون النصّ ولديهم أسئلة مختلفة، فنتيجة رحلتهم وتصرّفهم الفكريّ ستكون أجوبة ومفاهيم مختلفة. ولذلك ليس من الممكن أبداً غلق باب التفسير والفهم الجديد. وبرأي الشهيد الصدر قدس سره سرّ الأبديّة والغليان المستمرّ للمعارف والمفاهيم القرآنيّة يكمن في هذا الموضوع؛ وهو أنّ المفاهيم القرآنيّة مرتبطة مع الخبرات البشريّة في عالم الواقع(٤).

(١) مسعودي، هرمنيوتيك ونوانديشي ديني، م.س، ص٢٥٠.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة١٥٨.
(٣) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص١٧.
(٤) م.ن، ص١٧، ١٩.

ثالثاً: الشهيد الصدر قدس سره والدَوْر الهرمنيوطيقيّ:

إنّ أيّ نوع من الفهم والتفسير يبتني على افتراضات ومعلومات مسبَقة. والإنسان لن يأتي لفهم الأمور بعقل فارغ. وهذه المعلومات المسبَقة ترافق الإنسان في أيّ عمل فهميّ. ولذلك، فإنّ الإنسان في فهمه الجديد يفهم العالم الخارج والداخل؛ كما يتطلّب فهمه واهتماماته المسبَقة؛ ولكن ربّما هذه المسألة تؤدّي به إلى الوقوع في سوء الفهم والتفسير الخاطئ للنصّ؛ لأنّه من الممكن أن تكون معلومات المفسّر المسبَقة خاطئة. ولحلّ هذه المشكلة، وتصحيح الافتراضات الخاطئة وتنقيحها، يتمّ عرض «**الدور الهرمنيوطيقيّ**».

وبعبارة أخرى، يتحقّق تنقيح معلومات المفسّر المسبقة وأسئلته عن طريق مراجعة متكرّرة للنصّ، والعودة إلى الافتراضات (الدور الهرمنيوطيقيّ). فالهرمنيوطيقا تعترف بأنّ الإنسان في عمليّة الفهم لا يمكن أبداً أن يبدأ من الصفر المطلق. ونقطة حركة الإنسان في عملية الفهم هي دائماً الافتراضات والتصوّرات المسبَقة. وتؤكّد - أيضاً - أنّ المعلومات السابقة هي بداية الأفكار، ولكنّها ليست العامل الوحيد؛ بمعنى أنّ دورها ليس أحاديّ الاتّجاه ومفروضاً.

فمن الأساس، إنّ نظام الهرمنيوطيقا جدليّ وثنائيّ الاتّجاه. وهذا يعني أنّ الافتراضات والخلفيّات العقليّة للمفسّر لا تكون الكلمة الأخيرة في فهم النصّ. وفي هذا العلم يكون النصّ متحدّثاً، لديه ما يقول، ولكن دائماً بعد الاستماع إلى الجانب الآخر يبدأ بكلامه.

ولذلك يمكن أن نستنتج تناسب البيانات الأولى أو عدم تناسبها مع بياناته، ونقوم بالمقارنة، وتصحيح كلامه الأوّل[1].

(١) مسعودي، هرمنيوتيك ونوانديشي ديني، م.س، ص١٢٠.

في الحقيقة عندما يأتي القارئ إلى نصّ، ويحمل معلوماته السابقة، بعد استماعه إليه، سيعود إلى معلوماته السابقة، ويُدخِل تعديلات عليها، ويقرأ النصّ مرّة أخرى، ويحصل على فهم جديد. ويستمرّ الذهاب والإياب على هذا النحو، ليؤدّي في النهاية إلى انسجام بين النصّ والقارئ.

الآن، يجب أن نعرف هل كان الشهيد الصدرقدس سره يهتمّ في التفسير الموضوعيّ بمقولة «**دور الهرمنيوطيقا**» أم لا؟ وهل من الممكن اعتبار الغرض من الحوار مع القرآن في وجهة نظره هو العلاقة الجدليّة وثنائيّة الاتّجاه بين المفسّر والنصّ الذي يؤدّي إلى الفهم الجديد والأفضل من النصّ؟

وردّاً على هذه الأسئلة، يجب أن نقول: إنّ الشهيد الصدرقدس سره يبدو أنّه لم يتحدّث عن الدور الهرمنيوطيقيّ، لتنقيح افتراضات المفسّر بشكل واضح، ولكن من خلال التفكير في مضمون حديثه، فإنّه من الممكن الاستنتاج بوضوح أنّ الغرض من هذه المحادثة والحوار لا يكون شيئاً غير ذلك؛ لأنّ نتيجة الحوار بين النصّ والمفسّر لم تكن سوى الفهم الجديد، وتصحيح المعلومات السابقة.

وقد أشار الشهيد الصدرقدس سره إلى هذا الموضوع، بأنّه عندما يدرس المفسّر الموضوعيّ القرآن، باستخدام معارفه السابقة، هو في الحقيقة يسعى لأنْ يكسب رأي القرآن على أساس الأفكار والتبصّرات التي حصل عليها من خلال الخبرات البشريّة. وهكذا دائماً يسأل من القرآن، ويطلب الإجابات[1].

هذه العمليّة المستمرّة التي يتحدّث عنها الشهيد الصدرقدس سره تحت عنوان الاستنطاق تشير إلى الدّور الهرمنيوطيقيّ، والحصول على فهم بعد فهم. ولهذا السبب يقول بوضوح: «إنّ التفسير الموضوعيّ هو عمل الحوار والمحادثة مع القرآن، والحصول على الجواب منه، وليس ردّ

(١) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص١٧-١٨.

فعل سلبي؛ أي التأثّر أمام القرآن. التفسير الموضوعيّ هو عمل نشيط وذو غرض ونتيجة؛ لذلك يستخدم نصّ القرآن في إحدى حقائق الحياة الكبيرة»[١].

وإذا كان الشهيد الصدر قدس سره يتحدّث عن الاستنطاق، وعن نصّ القرآن، لا شكّ أنّ مقصوده منه ليس عملاً فجائيّاً ودفعيّاً. فالاستنطاق من القرآن هو عملية تتشكّل من مرحلة إلى مرحلة أخرى، ووراء هذه العمليّة تكمن مراجعات المفسّر للافتراضات، وتنقيحها المستمرّ.

ومن المستحيل أن يتمّ فهم النصّ فجأةً وبدون المرور من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وتكميل فهم المرحلة السابقة بفهم المرحلة اللاحقة؛ أي من خلال الذهاب والإياب المستمرّ. فالمعلومة السابقة الواحدة تصبح أكبر في مراحل متعدّدة، وتكون تمهيداً للفهم الآتي. وكلّما يكون الفهم أصعب، سنحتاج إلى ذهاب وإياب أكثر.

وكلمة الله المتعال - أيضاً - لا تستثنى من هذه القاعدة، فالمفسّر الذي يراجع القرآن في كلّ مرّة من الدراسات تختلف معلوماته عن المرّة السابقة، وأسئلته من النصّ مختلفة - أيضاً -، بل تصبح أكبر وأكبر. هذا هو الموضوع الذي نستنتجه من مضمون كلام الشهيد الصدر قدس سره حول الحوار والمحادثة مع القرآن.

ولذلك يجب أن يُضاف إلى هذا الموضوع أنّ الدور الهرمنيوطيقيّ ليس من المستحيل بمكان، على عكس الدور المنطقيّ الذي هو مستحيل وباطل في الفلسفة والمنطق. فالدور الهرمنيوطيقيّ هو عمليّة حقيقيّة وملموسة. وفي الواقع توجد في العديد من مشاهد الحياة الحقيقيّة وفكر الإنسان. وربّما لو تأمّلنا قليلاً الظواهر التي نواجهها في الحياة اليوميّة نعترف بأنّ تلقّيات الإنسان من العالم حوله لا تستند إلا إلى «**الدور الهرمنيوطيقيّ**»؛ بمعنى أنّ نواجه - دائماً - الظواهر التي يتفاعل بعضها مع البعض الآخر؛

(١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، م.س، ص١٨.

بحيث تؤثّر كلّ منها على الأخرى. هذه العلاقة الثنائيّة الاتّجاه تتسبّب في خلق عمليّة تسمّى «**الدور الهرمنيوطيقيّ**».

ويمكن تلخيص المواضيع التي ذُكِرَت على الرّسوم البيانيّة المبيّنة أدناه.

الافتراضي ← فهم النصّ ← التغيّرات في الافتراضي ← الفهم الجديد.

رابعاً: الشهيد الصدر قدس سره واندماج الآفاق:

إنّ الحوار الذي يتحدّث عنه الشهيد الصدر قدس سره بين المفسّر والنصّ؛ هو تكلّم النصّ في عمليّة الدور الهرمنيوطيقيّ الذي يشير إليه الطرح الهرمنيوطيقيّ. ونتيجة هذه العمليّة التي يسمّيها الشهيد الصدر قدس سره بالاستنطاق؛ هي الوصول إلى التفاهم في الحوار، ويطلق عليه في علم الهرمنيوطيقا عنوان «**اندماج الآفاق**».

ولذلك يوجد في هذه المقولة تشابه واضح بين وجهة نظر الشهيد الصدر قدس سره والطرح الهرمنيوطيقيّ؛ حيث يعتقد أصحاب الهرمنيوطيقا أنّ في كلّ قراءة من النصّ يتبيّن أفقان: أفق القارئ، وأفق النصّ؛ أي قراءة النصّ من قِبَل المفسِّر، والفهم الذي يتحقّق منه؛ هو نتيجة اندماج هذين الأفقين. والأفق هو وجهة النظر والموقف الذي من خلاله يتمّ النظر إلى الأشياء.

وبعبارة أخرى: إنّ أفق المفسّر هو تبصّره وارتفاع الموقف الذي يقف عليه، ونظره إلى البعيد. ولكنّ هذا المنظر يحتوي على بعض القيود في ذاته. فالأفق مثل العين؛ فالعين ليست فقط لا تمنع من الرؤية، بل هي الأداة الوحيدة للنظر. ومن جهة أخرى هذه العين نفسها هي عنصر التقييد. فالنظر بالعين يتطلّب تقييد شعاع النظر ومستوى الرؤية. وأفق المفسِّر على هذا النحو -أيضاً-. وسبيل الخروج من الأفق هو

أمر مستحيل. ويمكن للإنسان الحصول على معارف أكثر من المواقف التاريخيّة، ولكن هذا لا يعني الإشراف الكامل والتجاوز عنه. فالإنسان كائن تاريخيّ، بمعنى أن يعيش في الأفق الذي تمّ تعيينه من قبل عن طريق الافتراضات.

ولذلك لا يمكن للإنسان أن يتجاوز أفقه، ويخطو أبعد من ذلك، أو يفهم الأشياء بدون قيود؛ ولكنّ الأفق يتغيّر؛ مهما كانت خبرات الإنسان ومعلوماته ومعارفه من علوم عصره أكثر، فأفق فهمه يتغيّر بالمقدار نفسه[١].

وهكذا، فهم النصّ هو اندماج أفق المعاني لدى المفسّر مع أفق المعاني لدى النصّ. لذا، فإنّ مشاركة عقل المفسِّر في هذه العمليّة ليست شيئاً مذموماً، بل هي الشرط الوجوديّ للحصول على الفهم. وتعتبر حقيقة لا مفرّ منها.

والمهمّ في هذه المواضيع أنّ فهم النصّ من وجهة نظر الهرمنيوطيقا يتحقّق وفقاً لتطبيقه مع الوقت الحاضر، ونظراً إلى حالة استخدامه واستمراريّته مع المتطلّبات الجديدة. وفي هذه العمليّة يصعد المفسّر، بوصفه شخصاً، من سفح جبل؛ ليقع دائماً في منظر وأفق أوسع، ولا يمكن له أن يرى كلّ الوجود؛ بل فقط بعضاً من الوجود الذي قد تجلّى ليكون حصّته. ويرى المفسّر في هذا الموقف ما هو ظاهر وينتظر ما هو في الخفاء، ويتأمّل، ويفكّر في ما هو حصّته حالياً، دون أن يعتبره الكلمة الأخيرة وفصل الخطاب[٢].

وطريقة تفسير الشهيد الصدر قدس سره في التفسير الموضوعيّ مشابهة لمقولة الهرمنيوطيقا في هذا الصدد. فهو يعتقد أنّه لتحقيق الحوار بين المفسِّر والقرآن الذي في التالي يؤدّي لحصول المفاهمة المطلوبة بين

(١) قائمي نيا، عليرضا: متن از نكاه متن، ط١، قم المقدّسة، منتدى المعارف الإسلاميّة في إيران، ١٣٨٠هـ.ش، ص٣٦-٣٧.

(٢) م.ن.

المفسِّر وكلام الله، يجب على المفسِّر أن يبدأ بالعالم الواقع؛ لأنّ اندماج أفق المفسّر وأفق النصّ؛ هو نتيجة الحوار والمحادثة بينهما. وهذا الحوار سيؤدّي إلى التفاهم. والمفسّر سيحصل على الجواب المطلوب؛ وفقاً للمتطلّبات والمشاكل؛ عندما يحمل المفسّر من قِبَل كافّة الأفكار والتراث[١]؛ لأنّه كما قيل، الإنسان كائن تاريخيّ، ويعيش دائماً في الأفق الذي تمّ تعيينه من قبل، عن طريق الافتراضات والمعلومات. ولهذا السبب لا يمكن لأحد أن يترك أفقه أو يعبره ويتجاوزه، ولكن أشير - أيضاً - إلى أنّ هذا الأمر في طرح الهرمنيوطيقا لا يعني عدم تغيير الآفاق. فالهرمنيوطيقا تؤكّد أنّ تغيير الآفاق وإندماج آفاق المفسرّ والنصّ معاً تتغيّر بالمقدار نفسه؛ كلّما زادت خبرات الإنسان ومعلوماته من علوم ومعارف عصره[٢].

وبالنظر إلى هذه الحقيقة نرى الشهيد الصدر قدس سره يقول بصراحة إنّه يجب على المفسّر قبل أن يفسّر القرآن ملء عقله من معارف عصره وعلومه، فيأتي إلى القرآن ومعه معلومات سابقة، وخبرات بشريّة، ومن ثمّ يبدأ بالحوار. وكلّما كانت معارف المفسّر من عصره أكثر؛ كان تفسيره أكثر فائدة، وفهمه أكثر قيمة وأنفل[٣].

ويعتقد الشهيد الصدر قدس سره - بالاعتماد على كلام أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام - أنّ القرآن سيكون دواء للداء، وسيستجيب للاحتياجات، وسيحلّ عقد المجتمعات البشريّة عند الإنسان؛ من خلال المواريث العلميّة التي يتمتّع بها، ومعرفة المشاكل والمتطلّبات في عصره، وأحياناً الأجوبة التي استخدمها المجتمع لتلك المتطلّبات والمشاكل، فيستطيع مراجعة القرآن، والاستجواب منه[٤]. وفي هذه الحالة، سيندمج أفق المفسّر الذي

---

(١) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص٢٢.
(٢) قائمي نيا، متن از نكاه متن، م.س، ص٣٧.
(٣) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص٢٢.
(٤) م.ن.

يبتني على الخبرات والمعارف البشريّة مع أفق النصّ، ويتحقّق التفاهم. وعندئذ سيأتي مولود مبارك لدى المفسّر باسم «**الفهم الجديد**». وفي ضوء هذا الفهم الجديد سيستطيع المفسّر كشف الأسرار، والعثور على سرّ فكّ العقد، وحلّ المشاكل من خلال القرآن.

وقد أكّد الشهيد الصدر قدس سره على أنّ عدم تناهي القرآن؛ سيتحقّق فقط بأسلوب التفسير الموضوعيّ، الأمر الذي يبيّن التشابه بين فكره والطرح الهرمنيوطيقيّ أكثر من قبل، حيث يقول: «ومن هنا، التفسير الموضوعيّ سيكون قابلاً للتطوّر والنمو السريع؛ لأنّ الخبرات البشريّة تجعله مثمراً باستمرار، وعندما تتمّ دراسات القرآن؛ نظراً للخبرات البشريّة؛ سيتمّ الحصول على كشف وفهم جديد، عن طريق خبرات الإنسان، واستخدامه للقرآن، وسيكون ذلك الفهم؛ هو الفهم الحقيقيّ، والتبصّر الإسلاميّ الأصيل»[1].

ونتيجة البحث؛ هي: أنّه في سياق مقارنة أفكار الشهيد الصدر قدس سره مع الطرح الهرمنيوطيقيّ، يزهو موضوع اندماج الآفاق بوضوح. وهذه المقولة هي نتيجة الدور الهرمنيوطيقيّ، والحوار المستمرّ بين المفسِّر والنصّ.

وفي مبحث اندماج الآفاق، يدخل القارئ عند المواجهة في أفق النصّ، ويستمع إلى حديثه. وجمع الأفهام السابقة للمفسِّر مع حديث النصّ؛ يعني جمع الأفقين؛ سيفتح فضاءً جديداً من المعرفة للقارئ. ومن الممكن أن يشكّ المفسِّر في معلوماته السابقة عند الدخول إلى أفق، أو تُطرَح له أسئلة عن ذلك، وبالتالي من وجهة نظر وأفق جديد يعود إلى النصّ مرّة ثانية. وهذا الذهاب والإياب (الدور الهرمنيوطيقيّ) يستمرّ إلى أن يصل المفسّر إلى اتّفاق نسبيّ بين أفقه وأفق النصّ (اندماج الآفاق)، وفي هذه الحالة تكتمل عمليّة الفهم نسبيّاً، وتصل إلى نقطة مقبولة. وهذا هو

(١) الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص٢٤.

الموضوع الذي يذكره في حديثه تحت عنوان الكشف والفهم الجديد في تفسير القرآن.

خاتمة:

بناءً على ما تقدّم، يمكن القول: إنّ الشهيد الصدر قدس سره في التفسير الموضوعيّ، وبالاعتماد على الركن الخارجيّ؛ يعني استخدام الخبرات العلميّة والمعارف البشريّة في عصر المفسِّر في تفسير القرآن وفي الواقع، يشير إلى مقولة هامّة تحتوي على المواضيع الهرمنيوطيقيّة الهامّة. وبالتأمّل في هذه المقولة «**الركن الخارجيّ**» تظهر التشابهات الموجودة بين أفكاره والطرح الهرمنيوطيقيّ. فكما أنّ في الهرمنيوطيقا تمّ التأكيد على مقولة الافتراضات، ومعلومات القارئ، وتأثيرها على عملية الفهم، وتُعرَض مقولات، مثل: الدور الهرمنيوطيقيّ، واندماج الآفاق؛ بوصفها أدوات لهذا الطرح الهرمنيوطيقي؛ ففي فكر الشهيد الصدر قدس سره – أيضاً – تمّ التأكيد على استخدام المواريث العلميّة، والخبرات البشريّة من قِبَل المفسِّر؛ بوصفها شرطاً أساساً في التفسير الموضوعيّ، ومن وجهة نظره تمّ عرض مقولات أخرى، من قبيل «**الاستنطاق**» و«**محاورة النصّ**»، يمكن أن نستنتج منها بعض المقولات الهرمنيوطيقيّة ك «**الدور الهرمنيوطيقيّ**» و«**اندماج الآفاق**».

وختاماً، جدير بالذكر أنّ العديد من العلماء المسلمين قد وقفوا بوجه هذا النوع من التفسير، وقاموا بتحذير المفسِّرين من الخوض في هذا المسار المضلِّل، وأطلقوا عليه اسم التفسير بالرأي، وهم يظنّون أنّ المفسِّر لديه آراء مسبقة قبل التفسير؛ وهو ما تحذّر منه الروايات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

فإذا كانت للمفسّر افتراضات، فهو ليس ممنوعاً شرعاً أن يستخدمها، وإنّما هو ممنوع وغير مسموح إذا عرض المفسّر سؤالاً على النصّ القرآنيّ،

فيجيب عنه بنفسه؛ إسقاطاً لهذه الافتراضات على النصّ القرآنيّ. وإذا كانت مجرّد افتراضات في مستوى الفكر؛ فهو لا يُعدُّ الحصيلة النهائيّة من خلالها فقط؛ فهو يستنبط إجاباته النهائيّة بعد العودة إلى النصّ القرآنيّ، وإجراء الدراسة والبحث المنهجيّ الشامل. وأمّا التفسير بالرأي؛ فهو أنّ يفسِّر آيات القرآن؛ اعتماداً على معرفته التاريخيّة التقليديّة، دون أن يهتمّ بغيرها من القرائن المتّصلة، والمنفصلة، والشواهد القرآنيّة، فضلاً عن أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام.

فوجود الافتراضات لدى المفسِّر لا يعني أنّ المفسِّر يحمل آراءه واهتماماته على النصّ القرآنيّ، وإنّما معلومات المفسّر وآراءه (الواقع الخارجيّ) في خدمة الواقع الداخليّ دون المخدوم.

بعبارة أخرى، إنّ القرآن لا يقبل كلّ التفاسير والتأويلات؛ لأنّ الواقع الخارجيّ لا يحمل نفسه على النصّ ويعبّر عنه بكلّ ما يريد، بل يقوم المفسِّر بإلقاء الواقع الخارجيّ على النصّ؛ ليستنطق معاني القرآن المكنونة. فالقرآن لا يجيب عن كلّ الأسئلة إجابة كان يزعمها المفسِّر.

بناءً على ذلك، فإنّ دور المفسّر، هو دور الإصغاء والتفهّم، ودور النصّ، هو المتحدّث؛ كأنّ معرفة المفسّر المسبقة أذن للإصغاء، وليست يداً للتصرّف والتغيير.

وبالتالي، فإنّ تجارب الفكر البشريّ لا تزال تطرح الأسئلة في أذهان المفسريّن، وهم يلقونها على النصّ؛ ليستلهموا منه إجاباتها، بمعنى أنّ الأسئلة لا تخلق الإجابات، بل هي من أسباب البحث للمفسِّر الموضوعيّ.

مصادر ومراجع أخرى مساعدة:

١. ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، قم المقدّسة، دارالكتب العلميّة، لات.
٢. «تفسير موضوعي از نكاه شهيد صدر»، پيام جاويدان، سنة١، رقم٢، ١٣٧٤هـ.ش.
٣. «نكاهي به تفاسير موضوعي معاصر»، كيهان انديشه، رقم٢٥، ١٣٦٨هـ.ش.
٤. «تفسير موضوعي چيست؟» پيام جاويدان، سنة١، رقم١، ١٣٧٤هـ.ش.
٥. عزيزي كيا، غلام علي: «تفسير موضوعي قرآن از ديدكاه شهيد صدر»، رقم٣٥، ١٣٧٩هـ.ش.
٦. كسار، محمد جواد: مقارنات بين السيد الصدر وآخرين، قم المقدّسة، منشورات الوفاء، لات.
٧. مسلم، مصطفى: مباحث في التفسير الموضوعي، بيروت، دار القلم، ١٤١٠هـ.ق.